راية الإيالة وتبادل السفرات مع الباب العالي خلال القرن التاسع عشر

الأستاذ بن جبور محمد

إن الراية أي العلم قد استعمل في الماضي والحاضر كرمز وكأساس للتعبير عن التباين الموجود بين الدول، وإذا اعتمدت دولة على راية معينة غنما تعبر عن كيانها ووجودها المتميز، والمستقل، وقد شهدت الدولة الإسلامية اعتمادا الراية منذ تأسيس النواة الأولى لها في المدينة المنورة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم توارثت الدول الإسلامية المتعاقبة على الخلافة هذه الراية(1).

وقد أكد العثمانيون التزامهم باتخاذ الراية الإسلامية كمظهر من مظاهر الحضارة ورمزا من رموز الدولة الإسلامية واستعملت في أيام الحرب والسلم.

وكانت الإيالة الجزائرية قد استخدمت رايات عدة مشتركة مع الباب العالي، أو بصفة مستقلة، وهناك مصادر عدة تذكر بأن العلم كان يرفع فوق التحصينات الأسوار في الإيالة الجزائرية، كما كان يرفع فوق القصر، وتشير بعض الكتابات الفرنسية، "بأن قصر الباي كانت توجد به قضبان مذهبة كان يوضع فيها علم الإيالة الجزائرية، وبالنسبة للعلم الإسلامي، فكان يشاهد في المناسبات الدينية كصلاة الجمعة والأعياد"، وهذا ما يؤكده المؤرخ الفرنسي الذي تخصص في تاريخ الجزائر خاصة خلال أواخر العهد العثماني بها(2).

وقد وصف لنا الأسير الأمريكي جيمس كاثكرت قد وصف لنا الرايات التي استخدمتها الإيالة الجزائرية في أواخر القرن الثامن عشر إلا أنه للأسف في مذكراته لم يصف لنا هذه الرايات بدقة، كما لم يحدد شكلها ولونها، وقد وصفت بورغتون Brogton وهي ابنة القنصل الإنجليزي فرانكلي علم الدولة العثمانية "بعلم وراية الإسلام" حيث كتبت ذلك في مذكراتها عام 1809، وهي ابنة القنصل الإنجليزي فرانكلي(3).

وقد ذكرت هذه الآنسة بأنها كانت تشاهد الرايات عندما يتم تعيين والي جديد، أو في المناسبات الدينية كصلاة الجمعة أو في الأعياد، وهذا ما يؤكده كاثكارت في مذكراته(4)، كما وصفت في مذكراتها الآنسة بورغتون بأن العلم الإسلامي كان يرفع فوق المساجد في المناسبات الدينية، أما الراية البيضاء فكان يراها سكان الإيالة في الأيام العادية(5).

وقد ذكر فوتور دي بارادي في كتاباته بأن الراية الخضراء ظلت ترفع فوق الحصون الجزائرية حتى مطلع القرن التاسع عشر(6).

وقد غنم الفرنسيون الرايات الخضراء التي وجدوها في الحصون، وهي موجودة حاليا في متحف الجيش الفرنسي بباريس(7).

وقد سجلت لنا الكتابات الفرنسية وجود رايات أخرى في الجزائر حمراء اللون لها أربعة أشكال مشتركة مع رايات الباب العالي، وكانت إحدى هذه الأشكال ترفرف أثناء الغزو الفرنسي للإيالة في 05 جويلية 1830، وهي الراية الرسمية للجزائر، التي كان لونها أحمر، وشبيهة بالراية التونسية والمصرية(8)، وكانت ترفع هذه الرايات فوق سفنها، وقد حمل الأسطول العثماني نفس الراية الجزائرية، عندما أقلع من ميناء الإسكندرية بمصر نحو بحر إيجه باتجاه اليونان عام 1827(9).

وهناك راية أخرى حمراء اللون استخدمها الجزائريون خلال القرن الثامن عشر كان يوجد في وسطها سيف، وهي نفس الراية التي رفعها أحمد باي في مقاومته للوجود الفرنسي الذي أراد غزو مدينة قسنطينة عام 1836 (10).

ونظرا لاهتمام الإيالة الجزائرية وسكانها بالبحرية، فقد جسدت هذا الاهتمام في الرسومات التي كانت تضعها في راياتها، كرسم ذراع بحار يحمل سيفا، كما وجدت رايات أخرى ملونة بألوان مختلفة، كالأزرق والأحمر والأخضر، وكانت هناك رايات خاصة بالسفن التجارية، وقد تشابهت مع رايات السفن التجارية للإيالة التونسية التي استخدمت اللون الأخضر والأحمر، مع وضع سيفين متقاطعين وقد أطلق

الأسير الأمريكي جيمس كاثكرت على العلم الجزائري الذي كان موجودا في دار الإمارة "بعلم الباشا"(11)، وقد غنم الفرنسيون هذه الراية أثناء حملتهم على الجزائر.

ولقد كانت الإيالة دائمة الاتصال باستنبول عاصمة السلطة العثمانية عن طريق بعض الرسائل التي كان يصطلح عليها اسم "الفرمان" الذي كان يحمل عدة معاني كالقرار والمرسوم والبيان.

ومن خلال الكتابات التاريخية الخاصة بالتاريخ العثماني، فإن الفرمان نوعان: فرمان يبعثه السلطان العثماني، وكان يطلق عليه "الفرمان الهمايوني"، وفرمان عادي يتكلف بإرساله كبار الموظفين كالوزراء، والباشاوات والقواد، وكان الفرمان يكتب بخط جميل للدلالة على علو منزلة صاحب الفرمان، وكان يشار لهذا الفرمان في سجلات مدينة الجزائر باسم "الفرمان الهمايوني"(12).

وتجدر الإشارة في هذا المجال بأن إرسال الفرمان كان يحدث في الحالات غير العادية والضرورية، ولذلك كان يحمل في مضامينه وطبيعته "الأمر" و"الإلزام"، وإن إصدارها كان في الغالب لمعالجة بعض القضايا، أو لتثبيت والي جديد، ومن بين هذه الفرمانات، هناك فرمان كتب أثناء اضطراب العلاقات السياسية بين الإيالة الجزائرية وفرنسا. وهو الفرمان الذي بعثه السلطان محمود الثاني (1808 –1839) إلى الإيالة في يناير عام 1813 لحل المشاكل السياسية بين الجزائر وفرنسا. ويتضح من خلال مضمون هذا الفرمان جانب "الإلزام"، و"النهي"، و"الأمر"، ككلمة "عليك"، "احرص"، "من الواجب"، ومن بين الفقرات التي جاءت في هذا الفرمان، قول السلطان العثماني لباشا الجزائر: "عليك أن توجه عنايتك، واهتمامك لمنع كل ما هو مخالف للمعاهدات، وتقدم للفرنسيين جميع المساعدات، وتوفر لهم الحماية، واحرص على ألا يصدر منك أي سلوك مخالف لهذا الفرمان"(13).

وبالنسبة للفرمانات العادية، فيمكن تصنيفها من حيث الأهمية من الدرجة الثانية بعد الفرمانات الهمايونية، وكان أسلوبها يحمل في مضمونه معاني "الالتماس" و"الرجاء"، ونظرا لأهمية الفرمانات الأولى التي كان يبعثها السلاطين، فإن النوع الثاني قد ورد ذكره في السجلات الإدارية لمدينة الجزائر، بأسماء، وعبارات بسيطة، مثل "القطعة"، "المكتوب"، أو "القائمة"(14)، ومن نماذج هذه الفرمان الذي بعث به القبودان باشا سيد علي الجزائري في 13 مارس 1808 إلى الباشا أحمد من أجل تسوية الخلاف الذي كان بين الإيالة الجزائرية وفرنسا فيقول:

"إلى سعادة بكلربي الأمجد، الأكرم الأسعد، ولي النعمة سيدي وأخي صاحب المقام العالي".

"إن الإيالة الجزائرية تحظى بفضل مجاهديها في سبيل الإسلام باحترام وتقدير الباب العالي، وباقي الدول، وان الدولة الفرنسية التي تعد أقدم صديق للدولة العثمانية، وهي حليفة لها، ومؤيدة للباب العالي في جميع القضايا، لهذا يجب توفير الأمن والحماية للقائم بالأعمال الفرنسي في الجزائر، وجميع أعضاء بعثتهم وتقديم المساعدة لأداء مهامهم".

إننا ندعوكم لتنفيذ هذه الأوامر بأمر صادر عن السلطان وننصحكم بذل كل جهدكم لتفوزوا برضائه...ونتمنى أن تعلنوا طاعتكم لهذا الأمر بحماس.

وقد جاء توقيع القبودان باشا على هذا الفرمان بعبارة صديقكم المخلص سيد علي الجزائري(15).

ولقد كانت الدول الأوروبية تدرك مدى أهمية المراسلات بنوعيها الهمايوني، أي التي يصدرها السلطان العثماني، والعادية التي يبعثها كبار الموظفين، وبخاصة الفرمانات الخاصة بتسوية الخلافات، والنزاعات التي كانت تنشب عادة مع الإيالة الجزائرية، ويدعم هذا القول ما قاله القنصل الفرنسي دوبوا تانفيل في رسالة كتبها يوم 19 نوفمبر 1809 إلى الحكومة الفرنسية، يعلمها برفض الجزائر إطلاق سراح أحد المعتقلين الفرنسيين، واحتجاز سفينته، لعدم تجديده رخصة السفر عند الباب العالي، هذه الرخصة التي تعود لعام 1807، حيث قال: "إن رفض الإيالة الامتثال لأمر القبودان باشا يؤيد المقولة التي كنت أنادي بها، والمتمثلة في عدم جدوى الفرمانات العادية عند الجزائريين، إنني لم أوص بفرمان القبودان باشا العادي، وإنما بفرمان السلطان العثماني نفسه، ذلك أن الفرمانات التي تكون موشحة بالحظ الشريف، هي الوحيدة التي كانت تحدث ضغوطا على الجزائريين..."(16).

وهناك نص لرسالة أخرى لنفس القنصل الفرنسي دوبوا تانفيل حيث جاء فيها، "إنني عندما عرضت فرمان القبودان دريا على أحمد باشا قوبلت بنفور شديد، وقد بلغت شدة استخفاف الباشا، أنه رد علي

بقوله: "إن الفرمان لا يحتوي فقط على أوامر ملفقة، بل هو فرمان مزور في حد ذاته، وأضاف قوله أحمد باشا بأنه لا يجهل الأسلوب الذي يتم به الحصول على مثل تلك الفرمانات التي لا تكلف سوى بضعة قروش ليضع عليها خاتمه، دون أن يكون هو نفسه أي القبودان دريا على علم بذلك"(17)، من خلال هذا النص يتضح لنا مدى امتعاض القنصل الفرنسي من جواب الباشا ومدى معرفة داي الجزائر بحقيقة الأوضاع في العاصمة استنبول، من حيث الهيمنة الأوروبية على رموز السلطة العثمانية، وانتشار الرشوة والفساد الإداري.

وقد طلب القنصل الفرنسي دوبوا تانفيل من وزير خارجية دولته الاتصال باستنبول، حتى يسعى قنصلها لإقناع السلطة المركزية بإصدار فرمان يحمل الخط الشريف، بعدما أدركت فرنسا بأن هذا هو الأسلوب الوحيد هو الوسيلة الناجعة للتأثير على السلطات المحلية الجزائرية، وتحسين وضع علاقاتها مع الإيالة الجزائرية.

إن الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا بذلت أقصى جهودها من أجل التأثير على حاكم الجزائر واستغلال وتوظيف علاقاتها الجيدة مع الباب العالي، من أجل تسوية أوضاعها مع الإيالة الجزائرية وتقوية نفوذها فيها.

وقد كان الرسل المبعوثون من الجزائر إلى استنبول يختارون عادة من حراس القصر، ومن فئتين "الجاويشية" وهم الجنود الذين يختارون من الفرقة الانكشارية لتوكل إليهم مهمة نقل الأوامر إلى قادة الجيش في أوقات الحرب، أو إلى حكام المقاطعات العثمانية في أوقات السلم، وقد وظف القبودان باشا عددا هائلا من الرسل خاصة من فئة الجاويشية، كما كان يختار الرسل من فئة ثانية وهي "القبوجية"، وهو الحرس الخاص بالسلطان، وكان يعتمد عليهم في الحالات الخاصة والطارئة، فكانوا يكلفون في الظروف الصعبة بإيصال الأخبار(18).

وفي كثير من الحالات كانت تعترض الإيالة قضايا معقدة كانت تثيرها بعض الدول الأوروبية كفرنسا، أو بريطانيا كقضية الديون مثلا التي تهربت منها فرنسا منذ عام 1789، وفي حالة عدم قدرة الإيالة على حلها كانت تلجأ إلى طلب السلطنة إرسال المبعوثين أو الرسل، وفي حالة عجز عن حلها هؤلاء كان السلطان العثماني يكلف كبار الموظفين بحلها.

وقد ذكر لنا القنصل الفرنسي دوبوا تانفيل أدق التفاصيل عن هذه المجموعة من كبار الموظفين، والضباط الذين بعث بهم الباب العالي عام 1812 والتي ضمت عدة شخصيات بلغت 32 شخصية، وقد تابع الأحداث، ونشاط هذه البعثة حتى عودتها إلى استنبول، بتقرير أرخه يوم 31 أوت 1812(19)، وكان سبب إرسال هذا العدد الهام من المبعوثين إلى الإيالة الجزائرية هو توتر العلاقات بين الجزائر، وفرنسا، وقد سبقت هذه البعثة عدة مراسلات بين حكومة الإيالة والباب العالي، كانت من جانب الباب العالي تحمل معاني "النهي"، و"الأمر"، و"الإلزام"، والتأكيد على ضرورة تليين السياسة مع فرنسا، وهذا ما أمدتنا به السجلات الإدارية لمدينة الجزائر، وفيها فرمان بعث به السلطان العثماني محمود الثاني (1223 –1255 هـ) (1808 –1838) إلى "الباشا أحمد" قال فيه: "عليك أن توجه عنايتك، واهتمامك لمنع كل ما هو مخالف للمعاهدة، وتقدم للفرنسيين جميع المساعدات وتوفر لهم الحماية والحرص على أن لا يصدر منك أي سلوك مخالف لهذا الفرمان"(20).

وفي الحالات العادية كان الباشا يبعث إلى السلطان بتقرير مفصل ودقيق، كان يطلق عليه "عرض حال"، يضم أدق التفاصيل عن الوضع السياسي، والعسكري، والاجتماعي، ومن نماذج هذا التقرير، تقرير حسن باشا إلى الصدر الأعظم في جمادى الأولى 1243 هجرية الموافق لـ ديسمبر 1827 المتضمن رفض هذا الباشا واستنكاره للحصار الذي أقامته فرنسا في سواحل الإيالة، وكذلك تقرير عمر باشا إلى القبودان دريا في 05 رجب 1230 هجرية الموافق لـ 16 ماي 1816 ميلادية(21).

وعليه فإن الاتصالات بين الإيالة الجزائرية والدولة العثمانية كانت تتم في الظروف العادية، بكتابة تقارير دقيقة، أي عرض حال، وفي الحالات التي تتطلب التشاور والنقاش مع الموظفين الكبار للسلطنة العثمانية، وحتى مع السلطان نفسه، فكان على الباشا أن يبعث بالرسل والسفراء، لدراسة القضايا المعقدة التي كانت تعترض الإيالة من حين لآخر.

ومن أهم السفارات الجزائرية، السفارة التي بعث بها عمر باشا إلى استنبول في نهاية شوال 1231 هجرية الموافق لـ سبتمبر 1816 ميلادية، وكان على رأس هذه البعثة قائد الميناء علي رايس، وقد حملت هذه البعثة إلى السلطان العثماني محمود الثاني تقريرا مفصلا عن الحملة البريطانية على الجزائر(22)، وهناك سفارة أخرى كلفها حسين باشا في أواخر جمادى الأولى 1236 هجرية أي في أوائل مارس 1821 ميلادية، وقد ترأس هذه السفارة القبودان حسين، وكانت بعد طلب السلطان العثماني مناقشة قضية العوائد التي كانت الجزائر تطالب كل من تونس وطرابلس بدفعها، وقد أدى هذا إلى اضطراب العلاقات بين هذه الولايات والإيالة الجزائرية(23).

وكان من شأن العوائد والمطالبة بها أن تخرج السلطان العثماني لأن تونس وطرابلس كانتا تابعتين للدولة العثمانية.

وعليه فإن الراية كانت من رموز السيادة الجزائرية، وقد استخدمها الجزائريون كرمز للتعبير عن التباين الذي كان موجودا بين الدول، وقد أكدت على التزامها باتخاذ الراية الإسلامية، كمظهر من مظاهر الحضارة، ورمزا من رموز الدولة الإسلامية.

وإن تبادل السفارات دليل على المكانة التي بلغتها الجزائر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد انتبه إلى هذا الأمر السفراء والقناصل الأجانب، حيث سعوا لكل ما يملكون إلى الضغط على الإيالة من أجل تغيير موقفها وتحسين علاقتها مع الدول الأوروبية، كونها كانت لها عملة وعالم خاص وعلاقات خارجية خاصة بها وكانت تعترف بالباب العالي والخلافة الإسلامية لأسباب دينية، وقد رفعت راياتها إلى جانب راية الدولة العثمانية، كما كانت تتبادل معها الهدايا والسفراء.

الهوامش:

1البلاذري أحمد أويحي ابن جابر، كتاب فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، 1956 –1957، ج1،ص44.

2 Venture de Paradis, Tunis et Alger au 18éme siècle 1983, P 254 –255.

3Bardaux-J- la vie d'un consult, in R.A.U, P 284.

4 كاثكارت جيمس لندر "مذكرات" تعريب إسماعيل العربي الجزائر 1982، ص 32.

5Emerit, Marcel, mémoire sur Alger, A.IEO. 11/ 1953, P 18.

6 Venture de Paradis, Tunis et Alger au 18éme siècle, Parsi, 1983, P 254 –255.

7 متحف الجيش الفرنسي بباريس قاعة الرايات الخزانة رقم 28.

8 Hugan-H, les emblèmes des beys de Tunis Parsi, Ernest le Raux, 1913, P 55.

9 نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر 1965، ص 87.

10 Temini Abdeljlil le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey, 1830 –1937, Tunis, 1978, P 76.

11 كاتكرت جيمس لندر، مذكرات تعريب إسماعيل العربي، الجزائر 1982، ص 92.

12 مراسلات دايات الجزائر المجلد 11/ MD Alger الورقة 29.

13 Mémoire et documents, MD Alger, T 11, P 29.

14 Correspondance Consulaire et Commerciale, ccc Alger T 41, P 59.

15 Correspondance Consulaire et Commerciale, ccc Alger T 216, P 275.

16 Correspondance Consulaire et Commerciale, ccc Alger T 39, P 391 –392.

17 Correspondance Consulaire et Commerciale, ccc Alger T 41, P 59.

18 D'ohssan, Tableau général de l'empire ottoman, T iii 5787 –1790, Paris 1820, P 396.

19 Deheron, la mission du commissaire général ohbais Thain ville, P 94 –95.

20 Correspondance Consulaire et Commerciale, ccc Alger T 41, P 59.

21 Correspondance Consulaire et Commerciale, ccc Alger T 40, P 257 -259.

22 عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ط 1 –تونس 1972، ص 32.

23 Kuran, la lettre du dernier dey d'Alger, in RA –Paris 1952.